مادة : النصوص القديمة

المرحلة الثانية

الكورس الاول

مدرس المادة : د. فراس محمد مزعل

المحاضرة الاولى

كِتابُ البُخَلاءِ لِلْجَاحِظِ

أَوَّلًا : التَّعْريفُ بِالْجاحِظِ

هوَ أَبُو عُثْمانَ عَمْرو بْنُ بَحْرِ بْنِ مَحْبوبٍ الكِنانيِّ اللَّيْثِيُّ ، مِنْ بَني كِنانَةَ ، بْنُ خُزَيْمَةَ مِنْ مُضَرٍّ . وُلِدَ فِي البَصْرَةِ سَنَةَ ١٤٨ ، وَقِيلَ ١٦٠ هـ تَقْرِيبًا . وَلُقِّبٌ بِالْجاحِظِ لجُحوظٍ فِي عَيْنَيه .

نَشْأَتُهُ وَوَفاتُهُ

نَشَأَ الجاحِظُ فِي بَيْتٍ مُتَواضِعٍ مِنْ أَبَوَيْنِ فَقيرينِ . وَلَمْ يَتَحَدَّثْ الرّواةُ عَنْ أَبِيهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَروا جَدَّهُ اَلَّذِي كَانَ يَعْمَلُ جَمَالًا عِنْدَ بَني كِنانَةٍ . تُوُفِّيَ أَبُوه وَهُوَ طِفْلٌ ، فَتَعَهَّدَتْهُ أُمُّهُ ، فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَحْيَا فِي عَوْزٍ وَضيقٍ .

وَرَاحَ يَبيعُ السَّمَكَ والْخُبْزَ ارْتِزاقًا عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ سيْحانِ فِي البَصْرَةِ .

كَانَ مَيّالًا مُنْذُ حَداثَتِهِ الَّى الدِّراسَةِ وَالعُلُومِ ، فَأَكَبَ عَلَى العِلْمِ يَطْلُبُهُ بِرَغْبَةٍ شَديدَةٍ ، فَصَارَ يَخْتَلِفُ الَّى بَعْضِ اَلْكَتاتيبِ ، وَحَلَقاتِ اَلْمَسْجِديينَ فِي البَصْرَةِ ، ثُمَّ فِي المِرْبَدِ

، وَهُوَ سُوقٌ قُرْبَ البَصْرَةِ كَانَ فِي الإِسْلامِ كَسوقِ عُكاظٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ . وَكَانَ المِرْبَدُ مَيْدانَ التَّنافُسِ بَيْنَ اَلْخُطَباءِ والشُّعَراءِ .

فَاكْتَسَبَ الجاحِظُ عِلْمًا وَثَقافَةً وَمَعْرِفَةً . وَتَلَقَّى العُلُومُ والْآدابُ عَلَى أَيْدِي جَماعَةٍ مِنْ كِبارِ أَساتِذَةِ العَصْرِ وَأُدَبائِهِ وَمُفَكِّريه ، أَخَذَ عَنْ القَاضِي أَبِي يوسُفَ وَثُمامَةَ بْنِ أَشْرَسَ وَأَبِي إِسْحاقَ النِّظامَ ثُمَّ غَدًا طالِبَ عِلْمَ لِلْأَخْفِشِ ، والْأَصْمَعيِّ ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَأَبِي زَيْدٍ الأَنْصارِيِّ ، يَدْرُسُ عَلَيْهُمْ ، وَيَتَعَمَّقُ بِعُلومِهِمْ وَمِن ثُمَّ يَنْتَقِلُ الَّى حَلْقَةَ إِبْراهيمَ بْنِ سَيّارٍ فَيَتَأَثَّرُ بِهِ ، وَيَضْحَى وَاحِدًا مِنْ المُعْتَزِلَةِ كَأُسْتاذِهِ النِّظامُ البَلْخيِّ أَحَدِ أَئِمَّةِ المُفَكِّرِينَ ، وَشَيْخًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِي ذَاكَ العَصْرِ ، وَإِلَيْهُ تُنْسَبُ الفِرْقَةَ الجاحِظيَّةَ مِنْ المُعْتَزِلَةِ ، صِنْفَ الكَثيرُ فِي الفُنُونِ . كَانَ بَحْرًا مِنْ بُحورِ العِلْمِ ؛ رَأْسًا فِي الكَلامِ وَاَلْاعْتِزالِ ، وَعَاشَ تِسْعِينَ سُنَّةً ؛ وَتاريخَ وَفاتِهِ سَنَةَ ٢٥٥ هـ .

مُؤَلَّفاتُهُ

لِلْجَاحِظِ مُؤَلَّفاتٌ كَثيرَةٌ ، نَذْكُرُ أَبْرَزَها وَأَشْهَرُها :

١ – البُخَلاءُ

٢ – البَيانُ والتَّبْيينُ

٣ – الحَيَوانُ

٤ – كِتابُ التّاجِ فِي أَخْلاقِ المُلوكِ

٥ – رَسائِلُ الجاحِظِ

دِراسَةٌ وَصَفيَّةٌ لِكِتابِ البُخَلاءِ

لَعَلَّ كِتابَ البُخَلاءِ مِنْ أَوائِلِ الكُتُبِ اَلَّتِي عَرَضَ فِيهَا مُؤَلِّفُها صِفَةً واحِدَةً مِنْ صِفاتِ اَلْبَشَرِ – وَنَعْنِي البُخْلَ– ، مُصَوِّرًا البُخَلاءَ بِأُسْلوبٍ أَظْهَرَ خَصائِصَهُ المُمَيَّزَةَ كَاَلْظَرْفِ وَخِفَّةِ اَلرّوحِ وَاَلْتَهَكُّمِ والسُّخْرِيَةِ يَصْحَبُها حَزْمٌ وَصَرامَةٌ وَقُدْرَةٌ فائِقَةٌ عَلَى اَلْتَهْوِيلِ والْمُبالَغَةِ ، إِذْ يُعَدُّ كِتابُ البُخَلاءِ البِدايَةَ الفِعْلِيَّةَ لِميلادِ الفَنِّ القَصَصيِّ فِي الاَدْبِ العَرَبِيِّ ، فَكِتَابُ البُخَلاءِ مِنْ أَحَبَّ الكُتُبَ الَّى قَلْبِ الجاحِظِ ؛ لِاَنَ كُلَّ مَا بَيْنَ دَفَّتَي هَذَا الكِتابِ مِنْ كَلامٍ لِلْجَاحِظِ خِلَافًا لِكِتَابِهِ الثَّانِي البَيانِ والتَّبَيُّنِ ، وَيُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ أَغْلَبَ قِصَصِ الجاحِظِ اَلَّتِي وَرَدَتْ فِيه خَرَجَتْ مِنْ رَأْسِ الجاحِظِ ، وَهَذَا الكِتابُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يَحْمِلُهُ مِنْ عُنْوانِ (البُخَلاءُ) إِلَّا أَنَّهُ كِتابٌ عَميقٌ يَجْمَعُ عُلومَ عِدَّةٍ بَيْنَ عِلْمِ النَّفْسِ والِاجْتِماعِ ، فَهُوَ صورَةٌ لِعَصْرِ الجاحِظِ بِكُلِّ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ مَضامينَ نَفْسيَّةٍ واجْتِماعيَّةٍ وَمَدَنيَّةٍ ، فَهُوَ صورَةٌ لِلصِّرَاعِ الجَديدِ داخِلَ المَدينَةِ وَصورَةٌ لِلتَّحَوُّلَاتِ المَكانيَّةِ بَيْنَ البَادِيَةِ والْمَدينَةِ ، رَصْدَ الجاحِظِ فِي كِتابِهِ الظَّواهِرِ الِاجْتِماعيَّةِ مُسْتَنْطَقًا شَخْصيّاتِهِ لِإِظْهَارِ خَبَايَا النُّفوسِ ، والتَّأَمُّلِ لِهَذِهِ الحَياةِ ، فَصاغَ نَوادِرَهُ بِدِقَّةٍ وَبَراعَةٍ بِطَرِيقَةٍ نَقْديَّةٍ .

المحاضرة الثانية

قِصَّةُ الكِنْديِّ

حَدَّثَنِي عَمْرو بْنُ نُهيوِي قَالَ :

كَانَ الكِنْديُّ لَا يَزَالُ يَقُولُ لِلسَّاكِنِ ، وَرُبَّمَا قَالَ لِلْجَارِ ((إِنَّ فِي الدّارِ امْرَأَةٌ بِهَا حَمَلٌ ، وَاَلْوَحُمَّى رُبَّمَا أَسْقَطَتْ مِنْ رِيحِ القَدْرِ الطَّيِّبَةِ ، فَإِذَا طَبَّخْتَمْ فَرَدّوا شَهْوَتَها وَلَوْ بِغُرْفَةٍ أَوْ لَعْقَةٍ ، فَإِنَّ النَّفْسَ يَرُدُّها اليَسيرُ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بَعْدُ إِعْلامِيٍّ إِيَّاكَ ، فَكْفَارَتِكَ إِنْ أَسْقَطَتْ غُرَّةَ : عَبْدٍ أَوْ أَمَةً ، أَلْزَمَتْ نَفْسَكَ أَمْ أَبَيْتَ)) قَالَ : فَكَانَ رُبَّمَا يُوَافِي إِلَى مَنْزِلِهِ مِنْ قِصاعِ السُّكّانِ والْجيرانِ مَا يَكْفيه اَلْاَيّامُ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ يَفْطِنَ

وَيَتَغافَلُ . وَكَانَ الكِنْديُّ يَقُولُ لِعيالِهِ : أَنْتُمْ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ أَرْبابِ هَذِهِ الضَّياعِ . إِنَّمَا لِكُلِّ بَيْتٍ مِنْهُمْ لَوْنٌ واحِدٌ وَعِنْدَكُمْ أَلْوانٌ .

(الحِفْظُ)

قَالَ : وَكُنْتُ أَتَغَدَّى عِنْدَهُ يَوْمًا ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهُ جَارٌ لَهُ . وَكَانَ الْجَارُ لِي صَديقًا . فَلَمْ يَعْرِضْ عَلَيْهُ الغَدَاءُ . فَاسْتَحْيَيْتَ أَنَا مِنْهُ فَقُلْتَ : لَوْ أَصَبْتُمْ مَعَنَا مِمَّا نَأْكُلُ . قَالَ : قَدْ – واللَّهُ – فَعَلَتْ . قَالَ الكِنْديُّ : مَا بَعْدَ اللَّهِ شَيْءٍ . قَالَ : فَكَتِفُهُ واللَّهُ – يَا أَبَا عُثْمانَ – كَتِفًا لَا يَسْتَطيعُ مَعَهُ قَبْضًا وَلَا بَسْطًا ، وَتَرْكُهُ وَلَوْ أَكَلَ لِشَهِدَ عَلَيْهُ بِالْكُفْرِ ، وَلَكِنْ عِنْدَهُ قَدْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا .

قَالَ عَمْرٌو : بَيْنَا أَنَا ذَاتُ يَوْمٍ عِنْدَهُ إِذْ سَمِعَ صَوْتُ انْقِلابِ جَرَّةٍ مِنْ الدّارِ الأُخْرَى : فَصَاحَ : أَيُّ قِصافٍ ! فَقَالَتْ ، مُجَيَّبَةٌ لَهُ : بِئْرٌ وَحَياتُكَ ! فَكَانَتْ الجاريَةُ فِي الذَّكاءِ ، أَكْثَرُ مِنْهُ فِي الِاسْتِقْصاءِ .

مُعْجَمُ القِصَّةِ :

١ – نَشْوَارُ : مَا تُبْقِيه الدّابَّةُ مِنْ العَلَفِ .

٢ – العُلوفَةُ : النّاقَةُ أَوْ الشّاةُ تُعَلِّفُها وَلَا تُرْسِلُها فَتَرْعَى .

٣ – كُساحَةٌ : البَيْتُ غُبارُهُ أَوْ تُرابُهُ .

٤ – الزُّدُو : كَالسُّدُوِّ وَفِي التَّهْذِيبِ :لْغَةٌ فِي السُّدُوِّ ، وَهُوَ مِنْ لَعِبِ الصِّبْيانِ بِالْجَوَّزِ

٥ – المِّداحيُّ : والمَساديُّ : وَهِيَ أَحْجارُ امِّثالِ اَلْقُرْصَةِ كَانُوا يَحْفِرونَ حُفْرَةً وَيَدْحُّونَ المِّداحي فِيهَا بِتِلْكَ الاحِّجارِ فَإِنَّ رَفْعَ الحَجَرِ غَلَبَ صاحِبَها .

٦ – الحَطيطَةُ : أَيُّ الوَضيعَةِ وَهُوَ اسِّقاطُ الحُقوقِ .

٧ – الْقِيرَاطُ : منَ أصَل قُرْط عَلَيْهُ أَيْ أَعْطَاه قَلِيلًا قَلِيلًا ، وَهُوَ مِنْ أَجْزاءِ الدّينارِ .

٨ – قَطُّ : تَعْنِي نَفْيَ كُلِّ اِجْزَاءِ اَلْمَاضِي .

٩ – اَلْمُتَّرَسُ : خَشَبَةٌ توضَعُ خَلْفَ الْبَابِ كَدِعامَةٍ ويُضَبِّبُ بِهَا السَّرِيرُ .

شَخْصيّاتُ القِصَّةِ :

الشَّخْصيَّةُ الرَّئيسيَّةُ فِي القِصَّةِ هِيَ شَخْصيَّةُ (الكِنْديِّ) إِذْ اعْتَمَدَ الجاحِظُ عَلَى رَاوٍ مُفْرَدٍ مَعْروفٌ هوَ (عَمْرو بْنُ نُهيوِي) يَرْوِي قِصَّتَهُ ، أَمَّا الشَّخْصِيَّاتُ الثّانَويَّةُ فَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ مِثْلِ (أَوْلادِ الكِنْديِّ ، والْجاريَةِ ، والضُّيوفِ ، وَمَعْبَدٍ) فَاَلْقِصَّةُ تَحْمِلُ انْتِقالاتٍ مُتَعَدِّدَةً بَيْنَ الشَّخْصِيَّاتِ والاحِّداثِ والْحِوارِ تُجَسِّدُ ظاهِرَةَ البُخْلِ مَعَ السُّكّانِ والْجيرانِ وَأَنانيَّةً عَجيبَةً ، فَكَانَتْ هِذُّ القِصَّةُ تُمَثِّلُ الاِرْهَاصَاتِ الاولَى لِظُهُورِ فَنِّ القِصَّةِ العَرَبيَّةِ الحَديثَةِ ، والاِنْتِقالِ بِهَا مِنْ مَرْحَلَةِ القِصَّةِ اَلْحِكائيَّةِ الَّى مَرِحَةِ التَّأْليفِ والابِّداعِ .

أَهَمّيَّةُ كِتابِ البُخَلاءِ مِنْ خِلالِ (قِصَّةِ الكِنْديِّ) :

١ – **سياسيَّةٌ** : كَانَتْ مُهِمَّةُ الجاحِظِ مُناهِضَةَ لتَيّارِ الشُّعوبيَّةِ وَاَلْزَّنْدَقَةِ ، اَلَّذِينَ تَطاوُلوا عَلَى القيَمِ الاخِّلاقيَّةِ والاِجْتِماعيَّةِ لِلْعَرَبِ ، وَوَسَموا العَرَبَ بِالْبُخْلِ ، فَكَانَتْ مُهِمَّةُ الجاحِظِ تَسْليطَ الضَّوْءِ عَلَى البُخَلاءِ بِروحِ السُّخْريَةِ والطَّرافَةِ ، كَمَا أَنَّ أَغْلَبَ شَخْصيّاتِ قَصَصِهِ كَانُوا لَيْسَ عَرَبًا وَبِلَا أَسْماءٍ فِي مَرَّاتٍ عِدَّةٍ ، لِإِثْبَاتِ مَا لِلْعَرَبِ مِنْ قيَمٍ مُناقِضَةٍ لِشَخْصيّاتِ قَصَصِهِ ، مِنْ خِلالِ الاِسْتِهْزاءِ بِهِمْ ، لِيُثْبِتَ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ دَخيلَةٌ عَلَى العَرَبِ .

٢ – **اجْتِماعيَّةٌ** : فَاَلْجاحِظُ كَانَ مولَعًا بِرَصْدِ الظَّواهِرِ الاِجْتِماعيَّةِ وَمَعْرِفَةِ خَبَايَا النُّفوسِ ، وَتَشْخيصِ هَذِهِ الظّاهِرَةِ وَمَدَى تَأْثيرِها عَلَى سَيْرِ مُخْتَلِفِ العَلاقاتِ

الاِجْتِماعيَّةِ والاِقْتِصاديَّةِ والاخْلاقيَّةِ بَيْنَ أَفْرادِ المُجْتَمَعِ الجَديدِ ، لَا سِيَّمَا مَعَ الاِنْتِقالِ المَكانيِّ مِنْ البَادِيَةِ إِلَى المُجْتَمَعِ وَأَثَرِهِ عَلَى تَطَوُّرِ العَلاقاتِ الإِنْسانيَّةِ .

٣ – **فَنِّيَّةٌ** : كَانَ لِهَذَا الكِتابِ دَوْرُ الرِّيادَةِ فِي ارَساءِ قَواعِدِ الفَنِّ القَصَصيِّ لِيُصْبِحَ فِيمَا بَعْدَ فَنٌّ قَصَصيٌّ مُتَكامِل ، والاِنْتِقالِ بِهَذَا الفَنِّ مِنْ السَّرْدِ الحِكائيِّ إِلَى السَّرْدِ المَكْتوبِ ، فَضْلًا عَنْ مالِهِ مِنْ قيمَةٍ تاريخيَّةٍ عاكِسَةٍ لِمُخْتَلِفِ الاوِّضاعِ الاِجْتِماعيَّةِ والْفِكْريَّةِ والأَدْبيَةِ فِي العَصْرِ العَبّاسيِّ .

المحاضرة الثالثة

كِتابُ الأَدَبِ الكَبيرِ

التَّعْريفُ بِشَخْصيَّةِ الكاتِبِ :

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ المُقَفَّعِ أَحَدُ المَشْهُورِينَ بِالْكِتَابَةِ والْبَلاغَةِ وَالْتُرْسِلِ ، صاحِبُ الرَّسائِلِ البَديعَةِ وَالْبَليغَةِ ، وَهُوَ فارِسي الاَصْلِ ، وُلِدُ سَنَةِ (١٠٦ هـ) وَتُوُفِّيَ (ت ١٤٢ هـ) ، أَحَدُ كِبارِ كُتّابِ العَصْرِ العَبّاسيِّ اَلْاَوَّلِ صاحِبُ مَدْرَسَةٍ فَنِّيَّةٍ فَرَضَتْ اِسلوبَها ، لَهُ آثَارٌ أَدَبيَّةٌ مِنْهَا : (كُلَيْلَةٌ وَدِمْنَةٌ ، الأَدَبُ الكَبيرُ ، والْأَدَبُ الصَّغيرُ) ، وَسُمِّي ابْنُ المُقَفَّعِ لَانَ الحُجّاجُ وَلَّاه فَخانَهُ فَعَذَّبَهُ حَتَّى تَفَقَّعَتْ يَدَاهُ ، وَقِيلَ إِنَّ والِدَهُ يَعْمَلُ فِي قِفاعِ الْخُوصِ وَهِيَ كالقُفَّعَةِ ، قَالَ الاصْمَعيُّ فِيه : صَنَّفَ ابْنُ المُقَفَّعِ ((الدُّرَّةِ اليَتيمَةُ)) اَلَّتِي لَمْ يُصَنَّفْ مِثْلُها فِي فَنِّها .

كَمَا اتَّهَمَ بِالْزَّنْدَقَةِ حَتَّى قَالَ عَنْهُ المَهْدي :(مَا وَجَدَتْ كِتابَ زَنْدَقَةٍ إِلَّا وَأَصْلُهُ ابْنُ المُقَفَّعِ) .

لَمْ يَكُنْ ابْنُ المُقَفَّعِ بَلِيغًا فَحَسْبُ ، بَلْ كَانَ أَكْبَرَ بُلَغاءِ عَصْرِهِ ، إِذْ اسْتَطاعَ أَنْ يَنْقُلَ إِلَى العَرَبِيَّةِ مادَّةً أَجْنَبِيَّةً غَزِيرَةً ، دُونَ أَنْ يَحْدُثَ اغْراقًا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجُرَّ ضَرْبًا مِنْ الإِزْدِواجِ اللُّغَوِيِّ ، أَيْ بِمَعْنَى أَنَّهُ اسْتَطاعَ اَنْ يُحافِظُ عَلَى صَيّاغاتِها وَتَعابيرَها بِلُغَةٍ بَلِيغَةٍ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ المُتَلَقّي بِأَنَّهَا مَنْقولَةٌ مِنْ لُغاتٍ أَجْنَبِيَّةٍ .

تَسْمِيَاتُ الكِتابِ :

سُمِّيَ الكِتابُ بِتَسْمياتٍ عِدَّةٍ مِنْهَا (الدُّرَّةُ اليَتيمَةُ) مَرَّةً ، ثُمَّ (بِالْأَدَبِ الكَبيرِ) أُخْرَى ، وَلَهَا مِنْ كِلْتَا اَلْسَمَتينِ أَوْفَرَ نَصيبٌ ، وَإِنَّ كِلْتَا اَلْتَسْميَتِين لَمْ تَكُنْ مِنْ (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ المُقَفَّعِ) نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ عَمِلِ مِنْ جَاءَ بَعْدَهُ .

وَصْف الكِتابُ :

قَدْ يَتَبَادَرُ الَّى ذِهْنِ القارِئِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّ كِتابَ (الاَدْبِ الكَبيرِ) يَتَكَلَّمُ عَنْ الاَدْبِ بِنَوْعَيْهُ الشِّعْرَ والنَّثْرِ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ انَّما الكِتابُ فِي الاَدْبِ بِمَعْنَاه اَللُّغَوِيِّ ، يَتَحَدَّثُ عَنْ الْآدَابِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ اَلَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤَدَّبَ بِهَا الأُنسانُ نَفْسَهُ فِي بَعْضِ مَواقِفِ الحَياةِ ، فالْكِتابُ بِصُورَةٍ عامَّةٍ عِبارَةٌ عَنْ دُروسٍ اخْلاقيَةٍ واجْتِماعيَّةٍ ، يَشْتَمِلُ عَلَى عِباراتٍ وَحُكْمٍ وَعِظاتٍ وَوَصايا وَخُلاصَةٍ لِتَجارِبِ السّابِقِيْنَ ، وَإِنْ جَازَ لَنَا القَوْلُ فَإِنَّ الكِتابَ قَدْ يَكونُ اَلْبَذْرَةَ الاولَى لِكُتِبِ تَنْميَةِ الذّاتِ والتَّجارِبِ الشَّخْصيَّةِ .

المَوْضُوعَاتُ اَلَّتِي تَناوَلَها الكِتابُ :

قَسَمُ ابْنِ المُقَفَّعِ كِتابَهُ إِلَى قِسْمَيْنِ وَهُمَا : السُّلْطانُ وَالصَّدَاقَةُ ، وَقَدْ تَحْدُثَ فِي مَوْضوعِ السُّلْطانِ عَنْ اُمورٍ مُهِمَّةٍ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالسُّلْطَانِ نَفْسِهِ أَوْ وَليِّ اَلْاَمْرِ ، كَمَا ذِكْرَ الْآدَابَ اَلَّتِي يَجِبُ التَّحَلّي بِهَا عِنْدَ مُعامَلَةِ السُّلْطانِ .

وَأَمَّا الصَّداقَةُ بَيْنَ فِيهَا حُقوقُ الصَّداقَةِ ، وَصِفاتِ الصِّدّيقِ ، وَالصِّفَاتِ اَلَّتِي لَا تَكونُ فِي الصِّدّيقِ ، وَسُلوكِ المَرْءِ مَعَ اَلنّاسِ عُمُومًا ، كَمَا تَحَدَّثَ عَلَى ضوْرَةِ الِاسْتِماعِ الجَيِّدِ وَخَفْضِ الصَّوْتِ ، وَعَدَمِ تَسْفيهِ رَأْيِ اَلْجُلَساءِ .

المحاضرة الرابعة

الخَصائِصُ الفَنّيَّةُ لِأُسْلُوبِ ابْنِ المُقَفَّعِ :

١ – اسْتَعْمَلَ ابْنُ المُقَفَّعِ الاِسلوبَ الخَطّابيَّ ، مِنْ خِلالِ التَّنْويعِ بَيْنَ الخَبَرِ وَالِانْشَاءِ ، واسْتِعْمالِ اَلْاَمْرِ والنَّهْيِ مِنْ مِثْلِ :(واِضَّنَنْ – لَا تَنْحَلُهُ – اكْتَفْ) .

٢ – التَّعْبيرُ عَنْ الافِّكارِ بِأُسْلوبِ السَّهْلِ اَلْمُمْتِعِ بَعِيدًا عَنْ التَّعْقيدِ .

٣ – وُضوحُ المَعاني وَسُهولَةِ الالِّفاظِ .

٤ – يَتَمَيَّزُ اِسلوبُهُ بِاَلْإيجازِ وَالتَّرَابُطِ وَتَقْسيمِ المَوْضوعِ إِلَى فِقْراتٍ وَأَفْكارٍ مُتَسَلْسِلَةٍ .

٥ – الِابْتِعادُ عَنْ الزُّخْرُفِ وَاَلْمُحْسِناتِ البَديعيَّةِ ؛ وَذَلِكَ لِاهْتِمامِهِ بِالْمَعْنَى .

س / مَا هِيَ الأُصولُ والْفُصولُ اَلَّتِي حَثَّ عَلَيْهَا ابْنُ المُقَفَّعِ فِي أَصْلِ العِلْمِ وَفَصْلُهُ فِي كِتابِهِ الاَدْبِ اَلْكَبيرُ ؟

١ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي الدّينِ أَنْ تَعْقِدَ اَلْايمانَ عَلَى الصَّوابِ ، وَتُجْتَنَبَ الكَبائِرُ وَتُؤَدِّي الفَريضَةَ فالْزَمْ ذَلِكَ لُزومَ لَا غِنَى لَهُ .

٢ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي صَلاحِ الجَسَدِ أَلّا تَحْمِلَ عَلَيْهُ مِنْ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَاَلْباهِ إِلَّا خِفَافًا ، ثُمَّ إِنْ قَدَرَتْ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ جَميعَ مَنافِعِ الجَسَدِ وَمَضارِّهِ والِانْتِفاعُ بِذَلِكَ كُلِّهِ فَهُوَ أَفْضَلُ .

٣ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي البَأْسِ والشَّجاعَةِ أَلّا تَحَدَّثَ نَفْسَكَ بِالْإِدْبارِ وَأَصْحَابِكَ مُقْبِلونَ عَلَى عَدوِّهِمْ ، ثُمَّ إِنْ قَدَرَتْ عَلَى أَنْ تكونَ أَوَّلُ حامِلٍ وَآخَرَ مُنْصَرِفٍ مِنْ غَيْرِ تَضْييعٍ لِلْحَذَّرِ فَهُوَ أَفْضَلُ .

٤ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي الْجُودِ أَلّا تَضِنَ بِالْحُقُوقِ عَلَى أَهْلِها ، ثُمَّ إِنْ قَدَّرَتْ أَنْ تَزيدَ ذَا الحَقِّ عَلَى حَقِّهِ ، وَتَطولَ عَلَى مِنْ لَا حَقَّ لَهُ فَافْعَلْ ، فَهُوَ أَفْضَلُ .

٥ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي الكَلامِ أَنْ تُسَلِّمَ مِنْ اَلْسَقَطِ بِالتَّحَفُّظِ ، ثُمَّ إِنْ قَدَرَتْ عَلَى بارِعِ الصَّوابِ فَهُوَ أَفْضَلُ .

٦ – أَصْلُ اَلْاَمْرِ فِي المَعِيشَةِ أَلّا تَنِيَ عَنْ طَلَبِ الحَلالِ ، وَأَنَّ تَحَسُّنَ التَّقْديرِ لِما تُفِيدُ وَمَا تُنْفِقُ .

س / مَا النَّصائِحُ اَلَّتِي قَدَّمَهَا ابْنُ المُقَفَّعِ لِمَنْ تَوَلَّى السُّلْطَةَ فِي كِتابِهِ الاَدْبَ اَلْكَبيرَ ؟

١ – إِذَا تَقَلَّدْتَ شَيْئًا مِنْ أَمَرِ السُّلْطانِ فَكُنَّ فِيه أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلًا مُغْتَبِطًا بِهِ ، فَحَافِظَ عَلَيْهُ مَخافَةَ أَنْ يَزولَ عَنْهُ ، وَإِمَّا رَجُلًا كَارِهًا لَهُ ، مُكْرَهًا عَلَيْهُ ، فَاَلْكارهُ عامِلٌ فِي سُّخْرَةٍ ؛ إِمَّا لِلْمُلُوكِ ، إِنْ كَانُوا هُمْ سَلْطُوهُ ، وَإِمَّا لِلهِ تَعَالَى إِنْ كَانَ لَيْسَ فَوْقَهُ غَيْرَهُ .

٢ – إِنَّ مِنْ فَرْطٍ فِي سُّخْرَةِ المُلوكِ أَهْلَكُوهُ ، فَلَا تَجْعَلُ لِلْهَلَاكِ عَلَى نَفْسِكَ سُلْطَانًا وَلَا سَبِيلًا .

٣ – إِيَّاكَ – إِذَا كُنْتَ وَالِيًا – أَنْ يَكونَ مِنْ شَأْنِكَ حُبَّ المَدْحِ والتَّزْكِيَةِ ، وَأَنْ يَعْرِفَ النّاسُ ذَلِكَ مِنْكَ ، فَتَكُونَ ثُلْمَةً مِنْ الثَّلْمِ يَتَقَحَّمُونَ عَلَيْهَا مِنْهَا ، وَبابا يَفْتَتْحُونَكَ مِنْهُ ، وَغيبَةُ يَغْتَابُونَكَ بِهَا ، وَيَضْحَكُونَ مِنْكَ لَهَا .

٤ – قابِلُ المَدْحِ كَمادِحِ نَفْسِهِ . وَالمَرْءُ جَديرٌ أَنْ يَكونَ حُبُّهُ لِلْمَدْحِ هوَ اَلَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى وُدِّهِ فَإِنَّ الرّادَ مَحْمودٌ ، والْقابِلَ لَهُ مَعِيبٌ .

مُعْجَمُ النَّصِّ

١ – دَعَتْهُ : مِنْ دَعَا ، سَاعَاتٍ دَعَتْهُ : أَيْ سَاعَاتِ خَيْرَهُ .

٢ – ثُلْمَةٌ : مِنْ ثَلْمٍ : وَهِيَ الفُرْجَةُ اَلَّتِي تَكونُ فِي الحائِطِ وَمَا شَابَهَهَا بِسَبَبِ الهَدْمِ والْكَسْرِ .

٣ – يَتَقَحْمُونَ : مِنْ قَمْحٍ يَتَقَمْحُونَ : أَيْ يَدْخُلُونَ عَلَيْهُ مِنْ هَذِهِ الثُّلْمَةِ .

٤ – الكورَةُ بِالضَّمِّ : الصَقْعُ والْمَدينَةِ .

شَرْحُ النَّصِّ

يوَجِّهُ ابْنُ المُقَفَّعِ فِي هَذَا النَّصِّ نَصيحَةً لِمَنْ اُبْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ السُّلْطانِ وَيوَجِّهُهُ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْعُلَمَاءِ كَمَا يَحُثُّهُ عَلَى تَنْظيمِ الوَقْتِ والْموازَنَةِ بَيْنَ سَاعَاتِ راحَتِهِ وَساعاتِ عَمَلِهِ ، وَيَرَى أَنَّ الخَيْرَ لَا يَأْتي بِإِنْقاصٍ أَوْ تَفْريطٍ فِي هَذَا الجانِبِ ، كَمَا يَرَى أَنَّ مِنْ تَوَلَّى أَمَّ السُّلْطانِ فَهُوَ لَا يَخْلو مِنْ حالّيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكونَ مَغْبوطًا بِهِ فَعَلَيْهُ أَنْ يُحافِظَ عَلَيْهُ حَتَّى لَا يَزولَ وَإِمَّا أَنْ يَكونَ مُسَخَّرًا كَارِهًا لَهُ مِنْ قِبَلِ المُلوكِ أَوْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ المَلِكِ والسّياسَةِ . وَعَلَيْهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ اسْتَعْمَلَهُ الحاكِمُ أَوْ السُّلْطانُ فِي أَمْرٍ فَقَدْ هَلَكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا العَمَلَ شاقٌّ لَيْسَ بِهَيِّنٍ وَقِوامُ ذَلِكَ عَدَمُ التَّفْريطِ فِي اَلْاَمْرِ حَتَّى لَا يَجْعَلَ لِلْهَلَاكِ طَرِيقًا وَلَا سَبِيلًا عَلَى نَفْسِهِ وَيُحَذِّرُ ابْنُ

المُقَفَّعِ مِنْ أُبْتُلِيَ بِالْوِلَايَةِ أَنْ يَكونَ مِمَّنْ يُحِبُّونَ المَدْحَ والثَّناءَ وَيَنْزَلِقونَ خَلْفَهُ حَتَّى لَا يَكونَ المَدْحُ فُرْجَةً لِلْمَادِحِينَ وَلَا بابًا مِنْ ابْوابِ تَفْويضِ الوَالِي لِلْوُصُولِ لِلْمُبْتَغَى وَلَا طَرِيقٍ لِلْغِيبَةِ والِانْزِلاقِ وَراءَ المَطامِعِ ، ثُمَّ يُبَيِّنُ أَنَّ مِنْ يُقْبَلُ المَدْحَ فَهُوَ كَمَنْ يَمْدَحُ نَفْسَهُ وَأَنَّ الرّادَ لَهُ مَحْمودٌ وَأَنَّ القابِلَ لَهُ مَعِيبٌ ثُمَّ يُبَيِّنُ أَغْراضَ المَرْءِ مِنْ تَوَلّي الوِلايَةِ لِيَحْصُرَها فِي رِضا اللَّهِ ، وَرِضا السُّلْطانِ .

المحاضرة الخامسة

مَطْلَبٌ فِي أَنْواعِ المُلك : (لِلْحِفْظِ)

اعْلَمْ أَنَّ المُلِك ثَلاثَةٌ : مُلك دِينٍ ، ومُلك حَزْمٍ ، ومُلك هَوَى .

فَأَمَّا مُلك الدِّيْنِ فَإِنَّهُ إِذَا أَقَامَ لِلرَّعِيَّةِ دينَهُمْ ، وَكَانَ دينُهُمْ هوَ اَلَّذِي يُعْطِيهم اَلَّذِي لَهُمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ اَلَّذِي عَلَيْهُمْ ، أَرْصاهم ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ اَلْساخِطَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ الرَّاضِي فِي الاقْرارِ والتَّسْليمِ .

وَأَمَّا مُلك الحَزْمِ فَإِنَّهُ يَقومُ بِهِ اَلْاَمْرُ وَلَا يَسْلَمُ مِنْ الطَّعْنِ وَاَلْتَسَخُّطِ ، وَلَنْ يَضُرَّ طَعْنَ الضَّعيفِ مَعَ حَزْمِ القَوِيِّ .

وَأَمَّا مُلك الهَوَى فَلَعِبَ ساعَةٌ وَدَمارٌ دَهْرٍ .

أَكْتُبُ نَصًّا فِي تَحْذيرِ المَرْءِ مِنْ انْتِحالِهِ رَأْيَ غَيْرِهِ ؟ أَوْ لِمَاذَا لَا يَصِحُّ الِانْتِحالُ ؟

إِنْ سَمِعْتَ مِنْ صاحِبِكَ كَلَامًا أَوْ رَأَيْتَ مِنْهُ رَأْيًا يُعْجِبُكَ ، فَلَا تَنْتَحِلْهُ تُزَيِّنًا بِهِ عِنْدَ النّاسِ ، وَاكْتَفَّ مِنْ التَّزَيُّنِ بِأَنْ تَجْتَنِيَ الصَّوابُ إِذَا سَمِعْتُهُ ، وَتُنْسَبُهُ الَّى صاحِبُهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِحالَكَ ذَلِكَ مُسَخَّطَةٌ لِصاحِبِكَ ، وَأَنَّ فِيه مَعَ ذَلِكَ عَارًا وَسُخْفًا .

فَإِنْ بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ أَنْ تُشِيرَ بِرَأْيِ الرَّجُلِ وَتَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ ؛ جَمَعَتْ مَعَ الظُّلْمِ قِلَّةَ الحَياءِ ، وَهَذَا مِنْ سُوءِ الأَدَبِ الفاشيِّ مَعَ النّاسِ .

حُقوقُ الصَّداقَةِ مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِ ابْنِ المُقَفَّعِ (للحفظ)

اجْعَلْ غايَةَ تَشَبَّثِكَ فِي مُؤاخاةٍ مِنْ تُؤَاخِي وَمواصَلَةٍ مِنْ تَواصُلِ تَوْطينِ نَفْسِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا سَبيلَ لَكَ الَى قَطيعَةَ أَخِيكَ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَكَ مِنْهُ مَا تَكْرَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كَالْمَمْلوكِ تَعْتِقُهُ مَتَى شِئْتَ ، أَوْ كَالْمَرْأَةِ اَلَّتِي تُطْلِقُها إِذَا شِئْتَ ، وَلَكِنَّهُ عِرْضَكَ وَمُروءَتَكَ ، فَإِنَّمَا مُروءَةَ الرَّجُلُ إِخْوانَهُ وَأَخْدانَهُ ، فَإِنْ عُثِرَ النّاسُ عَلَى اَنَكٍ قَطَعَتْ رَجُلًا مِنْ إِخْوانِكَ ، (وَإِنْ كُنْتَ مَعْذِرًا) نَزَلَ ذَلِكَ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الخيانَةِ لِلْإِخَاءِ والْمَلالِ فِيه ، وَإِنْ أَنْتَ مَعَ ذَلِكَ تَصَبَّرْتَ عَلَى مُقَارَتِهِ عَلَى غَيْرِ الرِّضَى ، عَادَ ذَلِكَ الَّى اَلْعَيْبِ والنَّقيصَةِ

مُعْجَمُ النَّصِّ

١ – تَشَبَّثُكَ : تَمَسُّكُكَ

٢ – أَخْدانُ : الاصِّحابُ

٣ – مُقَارَتُهُ : إِبْقاءُ صُحْبَتِهِ .

المحاضرة السادسة

الأدب الصغير

قَالَ ابْنُ المُقَفَّعِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ مَخْلوقٍ حاجَةً ، وَلِكُلِّ حاجَةٍ غايَةٌ ، وَلِكُلِّ غايَةٍ سَبِيلًا . واللَّهُ وَقْتٌ لِلْأُمُورِ أَقْدارُها ، وَهَيَّأَ إِلَى الغَايَاتِ سُبُلَها ، وَسَبَبُ الْحَاجَاتِ بِبَلاغِها .

فَغَايَةُ النّاسِ وَحاجاتُهُمْ صَلاحُ المَعاشِ وَالْمُعادِ ، وَالْسَبيلُ إِلَى دَرْكِها العَقْلِ الصَّحيحِ . وَأَمارَةُ صِحَّةِ العَقْلِ اخْتيارُ الأُمورِ بِالْبَصَرِ ، وَتَنْفيذُ البَصَرِ بِالْعَزْمِ .

الأَدَبُ يُنَمّي العُقولَ

وَلِلْعُقُولِ سِجْيَاتٌ وَغَرائِزُ بِهَا تُقْبَلُ الأَدَبَ ، وَبِالْأَدَبِ تُنَمَّى العُقولَ وَتَزْكو .

فَكَمَا أَنَّ الحَبَّةَ المَدْفونَةَ فِي الأَرْضِ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَخْلَعَ يُبْسَها وَتَظْهَرُ قوَّتُها وَتَطَلُّعَ فَوْقَ الأَرْضِ بِزَهْرَتِها وَريعِها وَنَضْرَتِها وَنَمائِها إِلَّا بِمَعونَةِ الْمَاءِ اَلَّذِي يَغوَرُ إِلَيْهَا فِي مُسْتَوْدَعِها فَيَذْهَبُ عَنْهَا أَذَى اليَبَسِ والْمَوْتُ وَيَحْدُثُ لَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ القوَّةِ والْحَياةِ ، فَكَذَلِكَ سَّليقَةُ العَقْلِ مَكْنونَةٌ فِي مَغْرِزِها مِنْ القَلْبِ : لَا قوَّةَ لَهَا وَلَا حَياةَ بِهَا وَلَا مَنْفَعَةٌ عِنْدَهَا حَتَّى يَعْتَمِلَها الأَدَبُ اَلَّذِي هوَ ثِمارَها وَحَياتُها وَلَقاحَها .

وَجَلَّ الأَدَبُ بِالْمَنْطِقِ وَجَلَّ المَنْطِقَ بِالتَّعَلُّمِ . لَيْسَ مِنْهُ حَرْفٌ مِنْ حُروفٍ مُتَعَجَّمهِ ، وَلَا اسْمَ مِنْ أَنْواعِ أَسْمائِها إِلَّا وَهُوَ مَرْويٌّ ، مُتَعَلِّمٌ ، مَأْخوذٌ عَنْ إِمامٍ سابِقٍ ، مِنْ كَلامٍ أَوْ كِتابٍ ؛وَذَلِكَ دَليلٌ عَلَى أَنَّ النّاسَ لَمْ يَبْتَدِعوا أُصولَها وَلَمْ يَأْتِهِمْ عِلْمَها إِلَّا مِنْ قِبَلِ العَليمِ الحَكيمِ .

فَإِذَا خَرَجَ النّاسُ مِنْ أَنْ يَكونَ لَهُمْ عَمَلٌ أَصيلٌ وَأَنْ يَقُولُوا قَوْلًا بَديعًا فَلْيَعْلَمَ اَلْواصِفونَ اَلْمَخْبَئونَ أَنَّ أَحَدَهُمْ ، وَإِنْ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ ، لَيْسَ زَائِدًا عَلَى أَنْ يَكونَ كَصاحِبِ فُصوصٍ وَجَدَ يَاقُوتًا وَزَبَرْ حَدّا وَمَرْجانًا ، فَنَظَمَهُ قَلائِدُ وسُموطًا وَأَكاليلَ ، وَوَضْعَ كُلَّ فَصٍّ مَوْضِعِهِ ، وَجَمَعَ إِلَى كُلِّ لَوْنٍ شَبَهِهِ وَمَا يَزيدُهُ بِذَلِكَ حَسَنًا ، فَسُمِّيَ بِذَلِكَ صانِعًا رَفِيقًا ، وَكَصاغَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، صَنَعُوا مِنْهَا مَا يُعْجَبُ النّاسُ مِنْ الحُليِّ والْآنيَةِ ، وَكَاَلْنَحَلِ وَجَدَتْ ثَمَراتٍ أَخْرَجَهَا اللَّهُ طَيِّبَةً ، وَسَلَكَتْ سُبُلًا جَعَلَها اللَّهُ ذُلُلًا ، فَصَارَ ذَلِكَ شِفاءً وَطَعامًا ، وَشَرابًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا ، مَذْكُورًا بِهِ أَمْرُها وَصَنْعَتُها .

فَمَن جَرَى عَلَى لِسانَهُ كَلامٌ يَسْتَحْسِنُهُ أَوْ يَسْتَحْسِنُ مِنْهُ ، فَلَا يُعْجِبَنِ إِعْجابَ المُخْتَرِعِ المُبْتَدِعِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اجْتَناه كَمَا وَصَفْنَا .

الِاقْتِداءُ بِالصَّالِحِينَ

وَمَن أَخَذَ كَلَامًا حَسَنًا إِنَّ غَيْرَهُ فَتَكَلَّمَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَعَلَى وَجْهِهِ ، فَلَا تَرَيْنَ عَلَيْهُ فِي ذَلِكَ ضُؤُولَةٌ . فَإِنَّ مِنْ أَعْيُنٍ عَلَى حِفْظِ كَلامِ اَلْمُصيبينَ ، وَهَدْيَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِالصَّالِحِينَ ، وَوَفْقَ لِلْأَخْذِ عَنْ الحُكَماءِ ، وَلَا عَلَيْهُ أَنْ لَا يَزْدادَ ، فَقَدْ بَلَغَ الغايَةُ ، وَلَيْسَ بِناقِصِهِ فِي رَأْيِهِ وَلَا غامِطَهُ مِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا يَكونَ هوَ اسْتَحْدَثَ ذَلِكَ وَسَبَقَ إِلَيْهُ.

س / كيف يحيا العقل ؟

فَإِنَّمَا إِحْياءُ العَقْلِ اَلَّذِي يَتِمُّ بِهِ وَسَتَحْكُمُ خِصالٌ سَبْعٍ : الْإِيثَارُ بِالْمَحَبَّةِ ، والْمُبالَغَةِ فِي الطَّلَبِ ، والتَّثَبُّتُ فِي الِاخْتيارِ ، وَالْاعْتيادِ لِلْخَيْرِ ، وَحُسْنِ الرَّعْيِ ، وَالتَّعَهُّدِ لِما اخْتيرَ وَاعْتَقَدَ ، وَوَضْعَ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ قَوْلًا وَعَمَلًا .

١-أَمَّا المَحَبَّةُ: فَإِنَّهَا تَبْلُغُ المَرْءَ مَبْلَغَ الفَضْلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ حِينَ يُؤَثِّرُ بِمَحَبَّتِهِ . فَلَا يَكونُ شَيْءٌ أَمْرَأَ وَلَا أَحْلَى عِنْدَهُ مِنْهُ .

٢- أَمَّا الطَّلَبُ : فَإِنَّ النّاسَ لَا يُغْنيهم حَبُّهُمْ مَا يُحِبُّونَ وَهُوَ أَهَمُّ مَا يَهْوَوْنَ عَنْ طَلَبِهِ وَابْتَغَائِهِ . وَلَا تُدْرِكُ لَهُمْ بُغْيَتَهُمْ وَنَفَاسِتُهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، دُونَ الجَدِّ والْعَمَلِ .

٣- أَمَّا التَّثَبُّتُ والتَّخَيُّرُ : فَإِنَّ الطَّلَبَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا مَعَهُ وَبِهِ . فَكَمْ مِنْ طالَبِ رُشْدٍ وَجَدِّهِ والْغَيِّ مَعًا ، فَاصْطَفَى مِنْهُمَا اَلَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَأَلْغَى اَلَّذِي إِلَيْهُ سَعَى ، فَإِذَا كَانَ الطّالِبُ يَحْوِي غَيْرَ مَا يُرِيدُ ، وَهُوَ لَا يَشُكُّ فِي الظَّفَرِ ، فَمَا أَحَقُّهُ

بِشِدَّةِ التَّبْيِينَ وَحُسْنُ اَلْابْتِغاءِ ! وَأَمَّا اعْتِقادُ الشَّيْءِ بَعْدَ اسْتَبَانُتِهِ ، فَهُوَ مَا يَطْلُبُ مِنْ إِحْرازِ الفَضْلِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ .

٤-أَمَّا الحِفْظُ وَالتَّعَهُّدُ : فَهُوَ تَمامُ الدَّرَكِ . لِأَنَّ الإِنْسانَ موَكَّلٌ بِهِ النِّسْيانُ والْغَفْلَةُ : فَلَا بُدَّ لَهُ ، إِذَا اجْتَبَى صَوابُ قَوْلٍ أَوْ فِعْلَ مِنْ أَنْ يَحْفَظَهُ عَلَيْهُ ذِهْنَهُ لِأَوانِ حاجَتِهِ .

٥-أَمَّا البَصَرُ بِالْمَوْضِعِ ، فَإِنَّمَا تَصيرُ المَنافِعُ كُلُّها إِلَى وَضْعِ الأَشْياءِ مَواضِعَها ، وَبِنّا إِلَى هَذَا كُلِّهِ حاجَةٌ شَديدَةٌ . فَإِنَّا لَمْ نوْضَعْ فِي الدُّنْيَا مَوْضِعَ غِنًى وَخَفْضٍ وَلَكِنْ بِمَوْضِعِ فاقَةٍ وَكَدٍ ، وَلَسْنَا إِلَى مَا يُمْسِكُ أَرْماقَنا مِنْ المَأْكَلِ والْمَشْرَبِ بِأَحْوَجَ مِنَّا إِلَى مَا يَشِبَّتْ عُقولَنا مِنْ الأَدَبِ اَلَّذِي بِهِ تَفاوُتُ العُقولِ . وَلَيْسَ غِذاءُ الطَّعامِ بِأَسْرَعَ فِي نَباتِ الجَسَدِ مِنْ غَداءِ الأَبَدِ فِي نَباتِ العَقْلِ . وَلَسْنَا بِاَلْكَدِّ فِي طَلَبِ المَتاعِ اَلَّذِي يَلْتَمِسُ بِهِ دَفْعَ الضَّرَرِ والْغَلَبَةِ بِأَحَقَّ مِنَّا بِاَلْكَدِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ اَلَّذِي يَلْتَمِسُ بِهِ صَلاحُ الدّينِ وَالدُّنْيَا .

المحاضرة السابعة

انْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ نَفْسَكَ

اَلْواصِفونَ أَكْثَرُ مِنْ العَارِفِينَ ، وَاَلْعارِفونَ أَكْثَرُ مِنْ الفَاعِلِينَ .

فَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ أَيْنَ يَضَعُ نَفْسَهُ . فَإِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهُ آفَةً نَصِيبًا مِنْ اللُّبِّ يَعيشُ بِهِ ، لَا يُحِبُّ أَنَّ لَهُ بِهِ مِنْ الدُّنْيَا ثَمَنًا . وَلَيْسَ كُلُّ ذِي نَصيبٍ مِنْ اللُّبِّ بِمُسْتَوْجِبٍ أَنْ يُسَمَّى فِي ذَوِي الأَلْبابِ ، وَلَا يوصَفُ بِصِفاتِهِمْ . فَمَن رَامَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ لِذَلِكَ الِاسْمَ والْوَصْفَ أَهْلًا ، فَلْيَأْخُذَ لَهُ عَتادَهُ وَلْيُعِدَّ لَهُ طُولَ أَيّامِهِ ، وَلِيُؤَثِّرُهُ

عَلَى أَهْوائِهِ . فَإِنَّهُ قَدْ رَامَ أَمْرًا جَسيمًا لَا يَصْلُحُ عَلَى الغَفْلَةِ ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْعَجَزَةِ ، وَلَا يَصيرُ عَلَى اَلْأَثَرَةِ . وَلَيْسَ كَسَائِرِ أُمورِ الدُّنْيَا وَسُلْطانِها وَمالِها وَزينَتِها اَلَّتِي قَدْ يُدْرِكُ مِنْهَا المُتواني مَا يَفوتُ اَلْثابَرَ ، وَيُصِيبُ مِنْهَا العاجِزَ مَا يُخْطِئُ الحازِمُ .

س/ متى يعد العاقل جاهلاً؟

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ عَلَى العاقِلِ أُمُورًا إِذَا ضَيَّعَهَا حُكِمٌ عَلَيْهُ عَقْلُهُ بِمُقارَنَةِ الجِهالِ .

١- العاقِلِ من يَعْلَمَ أَنَّ النّاسَ مُشْتَرِكونَ مَسّتْوونَ فِي الحُبِّ لِما يوافِقُ والْبُغْضُ لِما يُؤْذِي ، وَأَنَّ هَذِهِ مَنْزِلَةٌ اتُّفِقَ عَلَيْهَا الحَمْقَى الأَكْياسُ .

الاكياس : جمع كيس وهو العاقل.

٢- العاقِلَ من يَنْظُرُ فِيمَا يُؤْذيه وَفِيمَا يَسُرَهُ ، فَيَعْلَمُ أَنْ أَحَقَّ ذَلِكَ بِالطَّلَبِ ، إِنْ كَانَ مِمَّا يُحِبُّ ، وَأَحَقَّهُ بِالِاتِّقاءِ ، إِنْ كَانَ مِمَّا يُكْرَهُ ، أَطْوالَهُ وَأَدْوَمَهُ وَأَبَقاه ، فَإِذَا هوَ قَدْ أَبْصَرَ فَضْلَ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَفَضَّلَ سُرورَ المُروءَةِ عَلَى لَذَّةِ الهَوَى.

٣-العاقل من يضع الرَّجاءَ والْخَوْفَ فِيه مَوْضِعَهُ ، فَلَا يَجْعَلُ اتِّقاءَهُ لِغَيْرِ المَخوفِ وَلَا رَجاءَهُ فِي غَيْرِ المُدْرَكِ . فِيَتَوقَّى . عاجِلُ اللَّذّاتِ طَلَبًا لِآجِلِها ، وَيُحْتَمَلُ قَريبٌ الأَذَى تَوَقّيًا لِبَعيدِهِ . فَإِذَا صَارَ إِلَى العاقِبَةِ ، بَدَا لَهُ أَنَّ قَرارَهُ كَانَ تَوَرُّطًا وَأَنَّ طَلَبَهُ كَانَ تَنَكُّبًا .

مُحاسَبَةُ النَّفْسِ

وَعَلَى العاقِلِ مُخاصَمَةِ نَفْسِهِ وَمُحاسَبَتُها والْقَضاءِ عَلَيْهَا والإِثابَةِ والتَّنْكيلِ بِهَا .

أَمَّا المُحاسَبَةُ ، فَيُحَاسِبُهَا بِمَا لَهَا ، فَإِنَّهُ لَا مَالَ لَهَا إِلَّا أَيّامُها المَعْدُودَةُ اَلَّتِي مَا ذَهَبَ مِنْهَا لَمْ يَسْتَخْلِفْ كَمَا تُسْتَخْلَفُ النَّفَقَةُ ، وَمَا جَعَلَ مِنْهَا فِي الباطِلِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الحَقِّ ، فَيَتَنَبَّهُ لِهَذِهِ المُحاسَبَةِ عِنْدَ الحَوْلِ إِذَا حَالَ ، والشَّهْرُ إِذَا انْقَضَى ، والْيَوْمَ إِذَا وَلَّى ، فَيَنْظُرُ فِيمَا أَفْنَى مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا كَسْبَ لِنَفْسِهِ ، وَمَا اكْتَسَبَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ الدّينِ وَأَمَرَ الدُّنْيَا . فَيَجْمَعُ ذَلِكَ فِي كِتابٍ فِيه إِحْصاءٌ ، وَجَدَ ، وَتَذْكِيرٌ لِلْأُمُورِ ، وَتَبْكِيتٌ لِلنَّفْسِ وَتَذْلِيلٌ لَهَا حَتَّى تَعْتَرِفَ تُذْعِنَ .

وَأَمَّا الخُصومَةُ ، فَإِنَّ مِنْ طِباعِ النَّفْسِ الآمِرَةِ بِالسُّوءِ أَنْ تَدَّعيَ المَعاذيرَ فِيمَا مَضَى ، والْأَمانيَّ فِيمَا بَقِيَ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهَا مَعاذيرُها وَعِلَلُهَا وَشُبَهاتُها .

وَأَمَّا القَضاءُ ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ فِيمَا أَرَادَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِأَنَّهَا فاضِحَةٌ مُرَدّيَةٌ موبِقَةٌ ، وَلِلْحَسَنَةِ بِأَنَّهَا زَائِنَةٌ مِنْجِيَةٌ مُرْبِحَةٌ .

وَأَمَّا الإِثابَةُ والتَّنْكيلُ ، فَإِنَّهُ يَسَّرَ نَفْسَهُ بِتَذْكُرِ تِلْكَ الحَسَناتِ وَرَجاءَ عَواقِبِها وَتَأْميلِ فَضْلِها ، وَيُعاقِبُ نَفْسَهُ بِالتَّذَكُّرِ لِلسَّيِّئَاتِ والتَّبَشُّعِ بِهَا وَالِاقْشِعْرَارُ مِنْهَا والْحُزْنِ لَهَا .

فَأَفْضَلُ ذَوِي الأَلْبابِ أَشَدُّهُمْ لِنَفْسِهِ بِهَذَا أَخْذًا ، وَأَقَلُّهُمْ عَنْهَا فِيه فَتْرَةً .

المحاضرة الثامنة

شروط رجاحة العقل من وجهة نظر ابن المقفع

عَلَى العاقِلِ أَنْ يَذْكُرَ المَوْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِرَارًا ، ذِكْرًا يُباشِرُ بِهِ القُلوبَ ويُقَدِّعَ الطِماحَ ، فَإِنَّ فِي كَثْرَةِ ذِكْرِ المَوْتِ عِصْمَةً مِنْ الأَشَرِ ، وَأَمَانًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، مِنْ الهَلَعِ.

١-عَلَى العاقِلِ أَنْ يُحْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ مَساوِيَها فِي الدّينِ وَفِي الأَخْلاقِ وَفِي الْآدَابِ ، فَيَجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي صَدْرِهِ أَوْ فِي كِتابٍ ، ثُمَّ يَكْثُرُ عَرْضُهُ عَلَى

نَفْسِهِ ، وَيُكَلِّفُها إِصْلاحُهُ ، وَيوَظِّفُ ذَلِكَ عَلَيْهَا تَوْظيفًا مِنْ إِصْلاحِ الخُلَّةِ وَالْخَلتْينَ والْخِلالِ فِي اليَوْمِ أَوْ الجُمُعَةِ أَوْ الشَّهْرِ .

فَكُلَّمَا أَصْلَحَ شَيْئًا مَحَاه ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى مَحْوِ اسْتَبْشَرَ ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى ثابِتٍ اكْتَأَبَ .

٢-عَلَى العاقِلِ أَنْ يَتَفَقَّدَ مَحاسِنُ النّاسِ وَيَحْفَظَها عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَتَعَهَّدَها بِذَلِكَ مِثْلَ اَلَّذِي وَصَفْنَا فِي إِصْلاحِ المُسَاوِي .

٣-عَلَى العاقِلِ أَنْ لَا يُخادِنَ وَلَا يُصاحِبَ وَلَا يُجاوِرُ مِنْ النّاسِ ، مَا اسْتَطاعَ ، إِلَّا ذَا فَضْلٍ فِي العِلْمِ والدّينِ وَالأَخْلَاقِ فَيَأْخُذُ عَنْهُ ، أَوْ مُوَافِقًا لَهُ عَلَى إِصْلاحِ ذَلِكَ فَيُؤَيِّدُ مَا عِنْدَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهُ فَضْلٌ .

فَإِنَّ الخِصالَ الصّالِحَةَ مِنْ البُرِّ لَا تَحْيَا وَلَا تُنَمَّى إِلَّا بِاَلْموافِقِينَ وَالمُؤَيِّدِينَ . وَلَيْسَ لِذي الفَضْلِ قَرِيبٌ وَلَا حَمِيمٌ أَقْرَبُ إِلَيْهُ مِمَّنْ وَافَقَهُ عَلَى صالِحِ الخِصالِ فَزادَهُ وَثَبَّتُهُ .

وَلِذَلِكَ زَعْمَ بَعْضُ الأَوَّلِيْنَ أَنَّ صُحْبَةَ بَلِيدٍ نَشَأَ مَعَ اَلْعُلَماءِ أَحَبُّ إِلَيْهُمْ مِنْ صُحْبَةِ لَبيبٍ نَشَأَ مَعَ الجُهّالِ .

٤-عَلَى العاقِلِ أَنْ لَا يَحْزَنَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُ مِنْ الدُّنْيَا أَوْ تَوَلَّى ، وَأَنْ يُنْزِلَ مَا أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَطَعَ عَنْهُ مَنْزِلَةٌ مَا لَمْ يُصَبْ ، وَيُنَزِّلُ مَا طَلَبَ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ لَمْ يُدْرِكْهُ مَنْزِلَةٌ مَا لَمْ يَطْلُبْ ، وَلَا يَدَعُ حَظَّهُ مِنْ السُّرورِ بِمَا أَقْبَلَ مِنْهَا ، وَلَا يَبْلُغَنَّ ذَلِكَ سُكَّرًا وَلَا طُغْيانًا ، فَإِنْ مَعَ السُّكَّرِ النِّسْيانِ ، وَمَعَ الطُّغْيانِ التَّهاوُنِ ، وَمِن نَسيَ وَتَهاوُنَ خَسِرَ .

٥-عَلَى العاقِلِ أَنْ يُؤْنِسَ ذَوِي الأَلْبابِ بِنَفْسِهِ وَيُجَرِّئَهُمْ عَلَيْهَا حَتَّى يَصِيرُوا حَرَسًا عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَرَأْيِهِ ، فِيسْتَنِيمَ إِلَى ذَلِكَ وَيَرُحُ لَهُ قَلْبَهُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَغْفُلونَ عَنْهُ إِذَا هوَ غَفَلٌ عَنْ نَفْسِهِ .

٦-عَلَى العاقِلِ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى نَفْسِهِ ، أَنْ لَا يَشْغَلَهُ شَغَلٌ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ : ساعَةٌ يَرْفَعُ فِيهَا حاجَتَهُ إِلَى رَبِّهِ ، وَساعَةً يُحاسَبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَساعَةً يُفْضي فِيهَا إِلَى إِخْوانِهِ وَثِقَاتِهِ اَلَّذِينَ يَصْدُقُونَهُ عَنْ غُيوبِهِ وَيصُونُوهُ فِي أَمْرِهِ ، وَساعَةً يُخَلّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِها مِمَّا يَحِلُّ وَيُجْمِلُ ، فَإِنَّ هَذِهِ السّاعَةَ عَوْنٌ عَلَى السّاعاتِ الأُخَرِ ، وَإِنَّ اسْتِجْمامَ القُلوبِ وَتَوْديعَها زيادَةَ قوَّةٍ لَهَا وَفَضْلٌ بِلُغَةٍ .

٧-عَلَى العاقِلِ أَنْ لَا يَكونَ رَاغِبًا إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلاثٍ : تُزَوِّدُ لِمَعادٍ ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعاشٍ ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

النّاسُ طَّبَقَتانِ مُتَبَايِنَتَانِ:

أ- عَلَى العاقِلِ أَنْ يَجْعَلَ النّاسَ طَبَقَتَيْنَ مُتَبَايِنَتَيْنِ ، وَيَلْبَسَ لَهُمْ لِّباسيْنَ مُخْتَلِفيْنِ ، فَطَبَقَةٌ مِنْ اَلْعامَّةِ يَلْبَسُ لَهُمْ لِباسَ اِنْقِباضٍ وَإِنْجازٍ وَتَحْفَظٌ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ وَخُطْوَةٍ .

ب- وَطَبَقَةٍ مِنْ الخاصَّةِ: يَخْلَعُ عِنْدَهُمْ لِباسٌ وَيَلْبَسُ لِباسَ الآنِسَةِ واللُّطْفِ والْبِذْلَةَ وَاَلْمُفاوَضَةَ . وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ الأَلْفِ وَكُلُّهُمْ ذُو فَضْلٍ فِي الرَّأْيِ ، وَثِقَةٌ فِي المَوَدَّةِ ، وَأَمانَةٌ فِي السِّرِّ ، وَوَفاءً بِالْإِخَاءِ .

٨-عَلَى العاقِلِ أَنْ لَا يَسْتَصْغِرَ شَيْئًا مِنْ الخَطَأِ فِي الرَّأْيِ ، والزَّلَلُ فِي العِلْمِ ، وَاَلْإِغْفالِ فِي الأُمورِ ، فَإِنَّهُ مِنْ اسْتَصْغَرِ الصَّغيرِ أَوْشَكَ أَنْ يَجْمَعَ إِلَيْهُ صَغِيرًا وَصَغيرًا ، فَإِنَّ الصَّغيرَ كَبيرٌ . وَإِنَّمَا هِيَ ثَلْمٌ يُثْلِمُها العَجْزُ وَاَلْتَضْييعُ . فَإِذَا لَمْ تَسُدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَتَفَجَّرَ بِمَا لَا يُطَاقُ . وَلَمْ نَرَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا قَدْ أُتِي مِنْ قِبَلِ الصَّغيرِ المُتَهاوِنِ بِهِ ، قَدْ رَأَيْنا المَلِكَ يُؤْتَى مِنْ العَدوِّ المُحْتَقَرِّ بِهِ ، وَرَأَيْنَا

الصِّحَّةَ تُؤْتَى مِنْ الدّاءِ اَلَّذِي لَا يَحْفَلُ بِهِ ، وَرَأَيْنَا الأَنْهارَ تَنْبَشِقُ مِنْ الجَدْوَلِ اَلَّذِي يَسْتَخِفُّ بِهِ .

وَأَقَلَّ الأُمورُ احْتِمالًا لِلضَّيَاعِ المَلِكِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَضيعُ ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا ، إِلَّا اتَّصَلَ بِآخِرَ يَكونُ عَظِيمًا .

١٠–عَلَى العاقِلِ أَنْ يَجْبَنَ عَنْ المُضيِّ عَلَى الرَّأْيِ اَلَّذِي لَا يَجِدُ عَلَيْهُ مُوَافِقًا وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ عَلَى اليَقينِ .

١١–عَلَى العاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الرَّأْيَ وَالهَوَى مُتَعَادِيَانِ ، وَأَنَّ مِنْ شَأْنِ النّاسِ تَسْويفُ الرَّأْيِ وَإِسْعافَ الهَوَى ، فَيُخَالِفُ ذَلِكَ وَيَلْتَمِسُ أَنْ لَا يَزَالَ هَوَاه مُسوِّفًا وَرَأْيَهُ مُسْعِفًا.

١٢–عَلَى العاقِلِ إِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهُ أَمْرَانِ فَلَمْ يُدْرْ فِي أَيِّهِمَا الصَّوابُ أَنْ يَنْظُرَ أَهْواهما عِنْدَهُ ، فَيُحَذِّرَهُ .

المحاضرة التاسعة

المقامة البغدادية

المعنى اللغوي :

إذا رجعنا إلى العصر الجاهلي وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنيين ، فتارة تستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي ، أما في العصر الاسلامي فنجدها تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً ، وعى هذه الشاكلة تعفى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أو جالساً.

المعنى الاصطلاحي :

لعل بديع الزمان الهمذاني هو أول من أعطى كلمة مقامة الاصطلاحي بين الادباء ، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث.

وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو (عيسى بن هشام) ، كما يتخذ لها بطلاً واحدًا هو (أبو الفتح الاسكندري).

سبب تأليف المقامة

ليست المقامة قصة وإنما هي حديث أدبي بليغ ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة إلا ظاهرٌ فقط ، أما هي في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة ، بل أن الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هي الغاية .

إذن المقامة أريد بها التعليم منذ أول الامر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسميها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الامر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوقا فأجراه في شكل قصصي .

كما أن بديع الزمان أراد أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كي يقتدروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا في كتاباتهم الأدبية .

المحاضرة العاشرة

بديع الزمان الهمذاني ـ المقامة البغدادية

حَدَّثَنَا عِيسى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ، وأَنَا بِبَغْدَاد، وَلَيسَ مَعْي عَقْدٌ عَلى نَقْدٍ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ حَتَّى أَحَلَّنِي الكَرْخَ، فَإِذَا أَنَا بِسَوادِيٍّ يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمارَهُ، وَيُطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ: ظَفِرْنَا وَاللهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْتِ، فَقَالَ السَّوادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللهُ الشَّيطَانَ، وَأَبْعَدَ النِّسْيانَ، أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْدِ، وَاتِّصَالُ البُعْدِ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ أَشَابٌ كَعَهْدي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم، وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَارِ، إِلي الصِدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ، فَقَبَضَ السَّوادِيُّ عَلى خَصْرِي بِجُمْعِهِ، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلى البَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَمِ، وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَمِ، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقاً، وَتَتَسَايَلُ جُوَاذِبَاتُهُ مَرَقاً، فَقُلْتُ: افْرِزْ لأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذا الشِّواءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الحَلْواءِ، واخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الأَطْبَاقِ، وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ، وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئَاً مِنْ مَاءِ السُّمَّاقِ،

لِيأَكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنيَّاً، فَأَنْخَى الشَّوّاءُ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَتُّورِهِ، فَجَعَلها كَالكُحْلِ سَحْقاً، وَكَالطِّحْنِ دَقّا، ثُمَّ جَلسَ وَجَلَسْتُ، ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ، حَتَّى اسْتَوفَيْنَا، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى: زِنْ لأَبي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينج رِطْلَيْنِ فَهْوَ أَجْرَى فِي الحُلْوقِ، وَأَمْضَى فِي العُرُوقِ، وَلْيَكُنْ لَيِّلِيَّ العُمْرِ، يَوْمِيَّ النَّشْرِ، رَقِيقَ القِشْرِ، كَثِيفِ الحَشْو، لُؤْلُؤِيَّ الدُّهْنِ، كَوْكَبِيَّ اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ المَضْغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبو زَيْدٍ هَنِيَّاً، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعدْتُ، وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ، حَتىَّ اسْتَوْفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشِعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَّةَ، وَيَفْثَأَ هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نأْتِيكَ بِسَقَّاءٍ، يَأْتِيكَ بِشَرْبةِ ماءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ ولاَ يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ: أَكَلْتُهُ ضَيْفَاً، فَلَكَمَهُ لَكْمَةً، وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشَّوَّاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ؟ زِنْ يَا أَخَا القِحَةِ عِشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهْوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، فَأَنْشَدْتُ:

أَعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلـهْ *** لاَ تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَـهْ

وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيَمةٍ *** فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ

معجم النص

١-الأَزَاذَ : أجود أنواع التمر.

٢-نقد : المال المسكوك من الفضة أو الذهب.

٣-بِسَوادِيٍّ : رجل من العراق نسبة إلى أرض السواد سميت بذلك لكثرة خضرتها من الزراعة.

٤-الدمنة : القبر.

٥-البدار : المبادرة والاسراع.

٦-استفزَّتْهُ :أي استهوته.

٧-الحمة : الشدة وهي ابرة العقرب .

٨-القرم : الشهوة لأكل اللحم.

٩-جُوذَاباتُهُ : جمع جوذابه خبز يخبز في تنور فوق اللحم .

١٠- ليلي : صنع ليلا .

١١- يومي النشر : أي نشر مصنعه في النهار فيكون قد نضج ومرت الحلاوة الى جميع اجزائه.

١٢- الصارة : العطش .

١٣- يفثأ : يسكن أي كسر الحدة من الحرارة.

١٤- اللوزينج : نوع من الحلوى يشبه القطائف.

١٥- يشعشع : يمزج بالثلج .

١٦- يقمع: يزيل .

المحاضرة الحادية عشر

كتاب الإمتاع والمؤانسة

أولاً: التعريف بصاحب الكتاب

أبو حيان التوحيدي

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي الصوفي. اختلف المؤرخون في أصله بين شيرازي أو نيسابوري، لكنهم أجمعوا على أنه فارسي الأصل، ولد التوحيدي في بغداد سنة ٣١٢هـ وبها نشأ. وأما نسبته للتوحيدي، فقد ذكر ابن خلكان أنه يقال إن أبا التوحيدي كان يبيع التوحيد ببغداد، وهو نوع من التمر بالعراق ، تلقى التوحيدي علوم ومعارف في مكان نشأته – بغداد – وذهب إلى البصرة وتلقى العلوم على أيدي علماء البصرة، ومنهم: أبو سعيد السيرافي، والقاضي أبي حامد المروروذي، وسمع الحديث من أبي بكر الشاني. ومن العلماء الفلاسفة وعلى رأسهم أبو سليمان المنطقي وأبو محمد المقدسي وعلي بن عيسى الرماني، اختلف في وفاته، لكن أقرب ما يكون أنه توفي سنة ٤٠٣هـ.

يقول محقق الكتاب أحمد أمين فيه :

أبو حيان التوحيدي من أولئك العلماء الأدباء الذين أُصيبوا في حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوِراقة والنَسخْ وجوْب الأقطار، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظَ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول في بعض كتبه على نحو أربعين درهماً في الشهر ، ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه في حياته ، فقد عَجِبَ ياقوت الحموي من أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له مع أنه(فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة) ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نُتفًا قصيرة وأخبارًا ضئيلة وأراد

هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق في آخر أيامه كتبه وقال: (إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحُرمتُ ذلك كله ...ولقد اضطُرِرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحُرِ أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم.)

قال السيوطي : (ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتِبت عنه في حياته وخرجت قبل حرقها.)

وكان من شؤمه أنه لم يبقَ من كتبه التي ألفها – وتبلغ نحو العشرين – إلا القليل ، ولم يطبع منها إلا المقابسات ، والصداقة والصديق، ورسالة في العلوم . وما بقي منها مخطوطًا بل وما طُبع منها مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها.

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمتعها كتابه (الإمتاع والمؤانسة) والذي يقع في ثلاثة أجزاء.

قصة الكتاب:

لتأليف أبي حيان التوحيدي هذا الكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقًا لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض ، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ووصله به ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أبا حيان من سُمَّاره ، فسامره سبعاً وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكَّره بنعمته عليه في وصله بالوزير ، فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ونزل على حكمه ، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير .

المحاضرة الثانية عشرة

المعنى اللغوي والمعجمي لكتاب الامتاع والمؤانسة

إذا وقفنا على عتبة العنوان نجد أن أبا حيان يزاوج بين "الإمتاع" و"المؤانسة". وهو ثنائي العنوان، ولهذا العنوان مدلوله على نفس المؤلف، وذلك لتؤنس التوحيدي من العزلة التي عاشها وحيداً، فأراد لكتبه ألا تبقى وحيدة مثل حاله حتى وفاته وإن نظرنا للعنوان من نظرة معجمية، فالإمتاع من: مَتَع الرجل ومَتُعَ، بمعنى جاد وظرف. وقيل كل ما جاء فقدْ متع وهو ماتع، والماتع من كل شيء البالغ في الجودة الغاية في بابه.

أما المؤانسة، فهي خلاف الوحشة، والأُنس، والإنسُ للطمأنينة. وفي بعض الكلام: إذا جاء الليل استأنس كلُّ وحشي، واستوحش كل إنسي.

ومن خلال تلك المعاني للعنوان، دار الكتاب ضمن المتعة والأنس، وجلب المتعة وإبعاد الوحشة.

الاجناس التي ينطوي عليها الكتاب

١-الشعر
٢-النثر (الحكاية ، الخطبة).

٣-الحوار إذ اعتمد الكاتب على الحوار في جميع لياليه ، فالكتاب قائم على الحوار بين شخصيتين .

وصف الكتاب:

قسَّم أبو حيان كتابه إلى ليالٍ ، فكان يدوِّن في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة (قال لي وسألني وقلت له وأجبته) وكان الذي يقترح الموضوع دائمًا هو الوزير أولاً هو الوزير يقترح أولاً موضوعًا حسبما اتفق وينتظر الاجابة ، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكارًا ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤلاً يأتي في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم . وهكذا يستطرد من باب لباب ،حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالبًا أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبًا ((مُلحة الوداع)) فيقول الوزير مثلاً: إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملحة الوداع . وهذه الملحة تكون عادة نادرة لطيفة أو أبياتًا رقيقة، وأحيانًا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعرًا بدويًّا يشمُ منه رائحة الشيح والقصيوم.

الشيح والقصيوم : نبات عشبي بري لأوراقه رائحة قوية وطيبة.

موضوعات الكتاب

موضوعات كتاب الامتاع والمؤانسة كثيرة ومتنوعة تنوعًا ظريفًا لا تخضع لترتيب ولا تبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث ، حتى نجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن، فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات واحاديث

المجالس . كما أن للكتاب فوائد كثيرة لما يحمله من قيمة تاريخية عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقفهم من الامراء والملوك ، كما أنه يعرض أحياناً للحياة الاجتماعية الشعبية.

أما إذا انتقلنا إلى مادة الكتاب نجد أن المؤلف قسَّم كتابه إلى ليالٍ ذاكراً في كل ليلة ما دار بينه وما بين الوزير على سبيل الحديث والحوار يجعله شيقًا ، أو على حد تعبيره هو (ممتعًا مؤنسًا) فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة.

المحاضرة الثالثة عشرة

الفرق بين ألف ليلة وليلة و الامتاع والمؤانسة :

إن وجه التشابه بين ألف ليلة وليلة وكتاب الامتاع والمؤانسة أن قصص الكتابين مقسمة إلى ليالٍ في شكل قصصي، أما وجه الاختلاف أن ليالي ألف ليلة وليلة كانت للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، أما ليالي الامتاع والمؤانسة كانت ليالٍ للفلاسفة والمفكرين والادباء ، إذ يتعرض فيها صاحب الكتاب لأهم مشاكل الفلاسفة كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر ، كما أن حظ الخيال في الامتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة.

الليلة الأولى

وصلتُ أيها الشيخ — أطال الله حياتك — أول ليلة إلى مجلس الوزير أعز الله نصره، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أَزْرَه! فأمرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما اعتراه منذ خُلِق العبوس، ولطَّف كلامه الذي ما تبدَّل منذ كان لا في الهَزْل ولا في الجِدِّ، ولا في الغضب ولا في الرضى .

ثم قال بلسانه الذَّلِيق، ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مراتٍ شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنك مُراعٍ لأمر البِيمَارِسْتان من جهته، وأنا أَرْبَأ بك عن ذلك، ولعلي أعرِّضك لشيء منك أنْبَه من هذا وأَجدَى، ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرَّف منك أشياء كثيرةً مختلفة تَرَدَّد في نفسي على مَرِّ الزمان لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكني أَنْثُرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسْنح ويَعرِض، فأجبني عن ذلك كلِّه باسترسال وسكون بال، بملء فيك، وجَمِّ خاطرك، وحاضر علمك . ودَعْ عنك تفنُّن البغداديين مع عفو لفظك ، وزائد رأيك ، ورِبْحْ ذهنك . ولا تَجْبُن جبن الضعفاء ، ولا تتأطر تأطر الأغبياء ، واجزِم إذا قلت ، وبالِغ إذا وصفت ، واصدُق إذا أَسْندت ، وافصِل إذا حكمت ، إلا إذا عرض لك ما يوجب توقُّفًا أو تهاديًا. وما أحسن ما قال الأول :

لا تَقْدَح الظِّنَّةُ في حكم شيمتُه عدلٌ وإنصافُ

يَمضي إذا لم تَلْقه شبهةٌ وفي اعتراضِ الشكِّ وَقَّافُ

وقد قال الأول :

أُبالي البلاءَ وإني امرؤٌ إذا ما تبيَّنتُ لم أَرتَبِ

وكن على بصيرة أني سأستدل مما أسمعه منك في جوابك عما أسألك عنه على صدقك وخلافِه، وعلى تحريفك وقِرافِه.

فقلتُ قبلُ: كلُّ شيء أريد أن أُجَاب إليه يكون ناصري على ما يُراد مني، فإني إن مُنِعْتُه نَكَلْتُ، وإن نَكَلْتُ قلَّ إفصاحي عما أطالَب به وخِفْتُ الكساد، وقد طمعتُ بالنَّفَاق وانقلبتُ بالخيبة، وقد عقدتُ خِنْصَري على المسألة. فقال حرس الله روحه: قل عافاك الله ما بدا لك، فأنت مُجاب إليه ما دمتَ ضامنًا لبلوغ إرادتنا منك، وإصابة غرضنا بك.

قلت: يُؤْذَن لي في كاف المخاطَبة وتاء المواجَهة، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ، وأركب جَدَد القول من غير تَقيَّة ولا تحاشٍ ولا مُحاوَبة ولا انحِياش.

قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى — على علوِّ شأنه، وبَسْطةِ مُلْكه، وقدرته على جميع خلقه — يُوَاجَه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رِفْعةٌ وجَلالةٌ وقَدْر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقَّ بذلك ومقدَّمًا فيه ، وكذلك رسولُه (صلى الله عليه وسلم) والانبياء قبله عليهم السلام وأصحابُه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان رحمة الله عليهم، وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزَّك الله، ويا عمرُ أصلحك الله، وما عاب هذا أحد، وما أَنِف منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ ولا شريف. وإني لأعجب من قومٍ يرغبون عن هذا وشبهه، ويحسبون أن في ذلك ضَعَةً أو نقيصةً أو حَطًّا أو زِرايةً، وأظنُّ أن ذلك لعجزهم وفُسُولتهم وانخزالهم وقلتهم وضُئُولتهم وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وأن هذا التكلُّف والتجبُّر يمحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص ينتفي بهذا الصَّلَف، هيهات! لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخُيَلاء ومن مَقابح الزَّهْو والكبرياء.

فقلت: أيها الوزير، قد خالطتُ العلماء، وخدمت الكبراء، وتصفَّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على هذه السِّيَاقة الحسنة والحجة الشافية والبلاغ المبين، وقد قال بعض السلف الصالح: «ما تَعاظَم أحد على مَن دونه إلا بقدر ما تَصاغَر لمَن فوقه.» والتصاغر دواء النفس، وسجية أهل للرشيد وقد عجِب من رقته، وحسن البصيرة في الدنيا والدين، ولذلك قال ابن السَّمَّاك للرشيد وقد عجبَ من رقته ، وحسن إصخاته لموعظته ، وبليغ قبوله لقوله، وسرعة دمعته على وجنته: ((يا أمير المؤمنين، لَتواضعُك في شرفك أشرفُ من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردًا وسلامًا))

قال :هذا باب مفترَقٌ فيه، ورجَعْنا إلى الحديث [فإنه شهي، سيَّما إذا كان من خطرات العقل]، قد خُدِم بالصواب في نغمةٍ ناغمة، وحروف متقاومة، ولفظٍ عذب، ومأخذٍ

سهل، ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسَّجع، وتباعدٍ من التكلف الجافي، وتقاربٍ في التلطف الخافي، قاتل الله ذا الرُّمَّة حيث يقول:

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيم الحواشي لا هراءٌ ولا نَزْرُ

وكنت انشد أيام الصبا هذا بالذال، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم، وبالعراق رُدَّ عليَّ وقيل: هو بالزاي. وقد أجاد القَطاميُّ أيضًا وتغزَّل في قوله:

فهُنَّ ينبذن من قول يُصِبن به مواقعَ الماء من ذي الغُلَّة الصادي

قلتُ: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أتَمَلُّ الحديث؟ قال: إنَّما يُمَلُّ العتيق والحديث معشوق الحس بمعونة العقل، ولهذا يُولَع به الصبيان والنساء. فقال: وأي معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم؟ قلتُ: ها هنا عقلٌ بالقوة وعقلٌ بالفعل، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوة، وها هنا عقلٌ متوسط بين القوة والفعل مُزْمِع فإذا برز فهو فيه بالفعل، ثم إذا استمر العقل بلغ الأفق. ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وُضِع الباطل، وخُلِط بالمُحال، ووُصِل بما يُعجِب ويُضحِك، ولا يئول إلى تحصيل وتحقيق، مثل ((هزار أفسان)) وكل ما دخل في جنسه من ضروب الخرافات. والحس شديد بالحادث والمُحْدَث والحديث، لأنه قريب العهد بالكون، وله نصيب من الطَّرَافة، اللَّهَج حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدُّثُور»، كأنه أراد » ولهذا قال بعض السلف اصْقُلوها واجلُوا الصدأ عنها، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير، فإنها إذا دَثَرت — أي صَدِئت، أي تغطَّت، ومنه الدِّثار الذي فوق الشعار — لم يُنتفَع بها. والتعجب كله منوطٌ بالحادث، وأما التعظيم والإجلال فهما لكل ما قَدُم إما بالزمان وإما بالدهر، ومثال ما يقدُم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بَعُد العهد بمبادئها، وسيمتد العهد جدًّا إلى نهاياتها، وأما ما قدُم بالدهر فكالعقل والنفس

والطبيعة. فأما الفَلَك وأجرامه المزدهرة في المعانقة العجيبة، ومناطقه الخفية، فقد أخذتْ من الدهر صورةً إلهية، وأحدثت فيما سلف منها صورةً زمانية.

فقال: بقي أن يتصل به نعت العتيق والخَلَق. فكان من الجواب أن العتيق يقال على وجهين: فأحدهما يشار به إلى الكرم والحُسن والعظمة، وهذا موجودٌ في قول العرب «البيت العتيق»، والآخَر يشار به إلى قِدَم من الزمان مجهول. فأما قولهم «عبد عتيق» فهو داخل في المعنى الأول، لأنه أُكْرِم بالعتق وارتفع عن العبودية فهو كريم، وكذلك «وجه عتيق» لأنه أعتقتْه الطبيعة من الدَّمامة والقبح، وكذلك «فرس عتيق».

وأما قولهم «هذا شيء خَلَق» فهو مضمَّن معنيين: أحدهما يشار به إلى أن مادته بالية والآخَر أن نهاية زمانه قريبة. وكان ابن عباد قال لكاتبه مرة — أعني ابن في شيء جرى: «نَعَم، العالَم عتيق ولكن ليس بقديم»، أي لو كان قديمًا — حسولة لكان لا أول له، ولمَّا كان عتيقًا كان له أول، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم، واستحسنوا هذا الإطلاق. وقد سألتُ العلماء البُصَراء عن هذا الإطلاق في حديث ولا في كلام نبيه فقالوا: ما وجدنا هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ ولا سعيد السِّيرافي الإمام: هل تعرف العرب أن معنى الصحابة والتابعين. وسألت أبا القديم ما لا أول له؟ فقال: هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلى وهمنا هذا منهم، وهْمهم في زمانٍ مجهول إلا أنهم يقولون «هذا شيء قديم» و«بنيان قديم» ويسرِّحون المبدأ.

فقال: قد مر في كلامك شيء يجب البحث عنه، ما الفرق بين الحادث والمُحْدَث والحديث؟ فكان من الجواب أن الحادث ما يُلْحَظ نفسُه، [والمُحْدَث ما يُلْحَظ تعلُّقٍ بالذي كان عنه محدثًا، والحديث كالمتوسط بينهما مع تعلُّقٍ بالزمان ومن كان منه. ٣٩]

مضارعٌ وها هنا شيء آخر وهو الحَدَثانُ والحِدْثان، فأما الأول فكأنه لما هو للحادث، وأما الحِدْثان فكأنه اسم للزمان فقط، لأنه يقال: «كان كذا وكذا في حِدْثان الحدث والأحداث ما وَلِي الأمير»، أي في أول زمانه، وعلى هذا يدور أمر

واحد وسَبْك والحادثات والحوادث و«فلان حِدْثُ مُلوكٍ»، كله من ديوان واحد ووادٍ واحد.

قال: ما الفرق بين حَدُث وحَدَث؟ قلتُ: لا فرق بينهما إلا من جهة أن حَدُث تابع وما حدُث. فإذا قيل لإنسان: حدِّث يا هذا، فكأنه قيل لقدُم، لأنه يقال: أخذه ما قدُم له: صِلْ شيئًا بالزمان يكون به في الحال، لا تقدُّم له من قبل.

رسالة لطيفة الحجم في ثم رجعتُ فقلتُ: ولفوائد الحديث ما صنَّف «أبو زيد المنظر، شريفة الفوائد في المَخْبَر، تجمع أصناف ما يُقتبَس من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحاديث، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها، وهي حاضرة. فقال: احملها واكتبها، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغِثاث. قلتُ: السمع والطاعة .

ثم رويتُ أن عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه: قد قضيتُ الوطر من كل العُفْر وأحسن من هذا شيء إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهْر على التِّلال بن عبد من عُبيد الله ما قال عمر بن عبد العزيز، قال: والله إني لأشتري [المحادثة الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين. فقيل: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحرِّيك وشدة تحفُّظك وتنزُّهك؟! فقال: أين يُذْهَب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير! إن في المحادثة تلقيحًا للعقول، وترويحًا للقلب، وتسريحًا للهمِّ، وتنقيحًا للأدب.

قال: صدق هذا الامام في هذا الوصف إن فيه هذا كله.
قلتُ : وسمعتُ أبا سعيد السيرافي يقول : سمعت ابن السراج يقول: دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذي قضى فيه ، فأنشدنا قوله :

ولقد سئمتُ مآربي فكأنَّ أطيبها خبيثُ
إلا الحديث فإنه مِثْلُ اسمه أبدًا حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك: قد ركبنا ولبسنا اللَّيِّن ، وأكلنا الطيب حتى أَجَمْناه وما أنا (إلى شيء) أحوج مني إلى جليس يضع عني مئونة الفَارِهِ وتبطِّنًا الحسناء، التحفُّظ ويحدثُني بما لا يَمجُّه السمع، ويَطرَب إليه القلب.» وهذا أيضًا حقٌّ وصواب، لأن النفس تَمَلُّ كما أن البدن يَكِلُّ. وكما أن البدن إذا كلَّ طلب الراحة، كذلك النفس اذا ملَّت طلبت الروح وكما لا بد للبدن أن يستمد ويستفيد بالجمام الذاهب بالحركة الجبالة للنَّصَب والضجر ، كذلك لا بد للنفس من أن تطلب الروح عند تكاثف المَلَل الداعي إلى الحرج فإن البدن كثيف النفس ولهذا يُرَى بالعين، كما أن النفس لطيفة البدن ولهذا لا توجد إلا بالعقل. والنفس صفاء البدن، والبدن كدَرُ النفس.

فقال: أحسنتَ في هذه الروايات على هذه التوشيحات ، وأعجبني ترحُّمك على شيخك أبي سعيد فما كلُّ أحد يسمح بهذا في مثل هذا المقام ، وما كل أحد يأبه لهذا الفعل .هات مُلحة الوداع حتى نفترق عنها ، ثم نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث.

قلت : حدثنا ابن سيف الكاتب الراوية ، قال : رأيتُ جحظة قد دعا بناءً ليبني له حائطًا فحضر فلما أمسى اقتضى البنَّاءُ الاجرة فتماكسا وذلك أن الرجل طلب عشرين درهمًا ، فقال جحظة: إنما عملتَ يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهمًا ؟ قال: أنت لا تدري ، إني قد بنيت لك حائطاً يبقى مائة سنة. فبينما هما كذلك وَجَب الحائط وسقط ، فقال جحظة: هذا عملك الحسن؟! قال: فأردت أن يبقى ألف سنة ؟ قال : لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك ! فضحك أضحك الله سنَّه!

معجم الليلة الاولى

١- اللسان الذليق: الحاد البليغ

٢- التأطر: التحبُّس والتثنِّي، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يُسأل عنه

٣- التهادي: المشي الرفيق في تمايل.

٤-قرافه : أي ارتكابه ، يقال : قارف الذنب واقترافه ، إذا خالطه.

٥- الجدد بالتحريك: ما استوى من الأرض لا وَعْث فيه ولا جبل ولا أَكَمة، شبه به القول الذي لا عوج فيه ولا التواء.

٦-الانحياش : الانقباض.

٧-انخزالهم: أي انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالي.

٨-رخيم الحواشي: ناعمها، والهراء: المنطق الكثير، والنزر: القليل .

٩- هزار أفسان كتاب في الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة. ويستفاد مما ذكره من السبب في تأليفه أنه أصل لكتاب «ألف ليلة وليلة» المعروف، فقد ذكر أن بعض الملوك كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها «شهرزاد»، فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة ... إلخ

المحاضرة الرابعة عشرة

كتاب نهج البلاغة

وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

بابُ المُختارَِ من حِكمِ أميرِ المُؤمنين عليه السلامُ

١- قَالَ (عليه السلام): كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.
ابن اللبون : بفتح اللام وضم الباء : ابن الناقة إذا استكمل سنتين لا له ظهر قوي فيركبونه ولا له ضرع فيحلبونه ، يريد تجنب الظالمين في الفتنة لا ينتفعوا بك .

٢- وَقَالَ (عليه السلام): أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.
ازرى بها : حقرها واستشعره تبطنه وتخلق به ، ومن كشف ضره للناس دعاهم للتهاون به ، فقد رضى بالذل . وأمر لسانه : جعله أميرا.

٣- وَقَالَ (عليه السلام): الْبُخْلُ عَارٌ وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.

٤- وَقَالَ (عليه السلام): الْعَجْزُ آفَةٌ وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى.

٥- وَقَالَ (عليه السلام): الْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ وَالْآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ.

٦- وَقَالَ (عليه السلام): صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ وَالِاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.
وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً الْمَسْأَلَةُ خِبَاءُ الْعُيُوبِ وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ.
لا يفتح الصندوق فيطلع الغير على ما فيه . والحبالة- بالضم: شبكة الصيد . والبشوش يصيد مودات القلوب . والاحتمال : تحمل الاذى ، ومن تحمل الاذى خفيت عيوبه كأنما دفنت في قبر.

٧- وَقَالَ (عليه السلام): الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ.

٨- وَقَالَ (عليه السلام): اعْجَبُوا لِهَذَا الْإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ

٩- وَقَالَ (عليه السلام): إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ.

١٠- وَقَالَ (عليه السلام): خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.

١١- وَقَالَ (عليه السلام): إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

١٢- وَقَالَ (عليه السلام): أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

١٣- وَقَالَ (عليه السلام): إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ.

١٤- وَقَالَ (عليه السلام): مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ.

١٥- وَقَالَ (عليه السلام): مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ.

١٦- وَقَالَ (عليه السلام): تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ.

١٧- وَسُئِلَ (عليه السلام) عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وآله) غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ، فَقَالَ (عليه السلام): إِنَّمَا قَالَ (صلى الله عليه وآله) ذَلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ فَأَمَّا الْآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ.

١٨- وَقَالَ (عليه السلام): فِي الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْقِتَالَ مَعَهُ: خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ.

١٩- وَقَالَ (عليه السلام): مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ.

المحاضرة الخامسة عشرة

أقوال امير المؤونين علي (عليه السلام) من كتاب نهج البلاغة

٢٠- وَقَالَ (عليه السلام): أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ.

٢١- وَقَالَ (عليه السلام): قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ.

٢٢- وَقَالَ (عليه السلام): لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ وَإِنْ طَالَ السُّرَى.

قال الرضي: و هذا من لطيف الكلام و فصيحه و معناه أنا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء و ذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد و الأسير و من يجري مجراهما.

٢٣- وَقَالَ (عليه السلام): مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

٢٤- وَقَالَ (عليه السلام): مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ.

٢٥- وَقَالَ (عليه السلام): يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ.

٢٦- وَقَالَ (عليه السلام): مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ.

٢٧- وَقَالَ (عليه السلام): امْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ.

٢٨- وَقَالَ (عليه السلام): أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.

٢٩- وَقَالَ (عليه السلام): إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى.

٣٠- وَقَالَ (عليه السلام): الْحَذَرَ الْحَذَرَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ.

٣١- وَسُئِلَ (عليه السلام) عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهَادِ وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ وَغَوْرِ الْعِلْمِ وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكَافِرِينَ وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى التَّعَمُّقِ. وَالتَّنَازُعِ وَالزَّيْغِ وَالشِّقَاقِ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى التَّمَارِي وَالْهَوْلِ وَالتَّرَدُّدِ وَالِاسْتِسْلَامِ فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا.

قال الرضي: و بعد هذا كلام تركنا ذكره خوف الإطالة و الخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب.

٣٢- وَقَالَ (عليه السلام): فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ.

٣٣- وَقَالَ (عليه السلام): كُنْ سَمْحاً وَلَا تَكُنْ مُبَذِّراً وَكُنْ مُقَدِّراً وَلَا تَكُنْ مُقَتِّراً.

٣٤- وَقَالَ (عليه السلام): أَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى.

٣٥- وَقَالَ (عليه السلام): مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ.

٣٦- وَقَالَ (عليه السلام): مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ.

٣٧- وَقَالَ (عليه السلام): وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ دَهَاقِينُ الْأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ فَقَالُوا خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا فَقَالَ وَاللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ.

٣٨- وَقَالَ (عليه السلام): لِابْنِهِ الْحَسَنِ (عليه السلام) يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.

٣٩- وَقَالَ (عليه السلام): لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالْفَرَائِضِ.

٤٠- وَقَالَ (عليه السلام): لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ.
قال الرضي: و هذا من المعاني العجيبة الشريفة و المراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية و مؤامرة الفكرة و الأحمق تسبق حذفات لسانه و فلتات

كلامه مراجعة فكره و مماخضة رأيه فكأن لسان العاقل تابع لقلبه و كأن قلب الأحمق تابع للسانه.

٤١- و قد روي عنه (عليه السلام) هذا المعنى بلفظ آخر و هو قوله:
قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ.
ومعناهما واحد.

٤٢- وَقَالَ (عليه السلام): لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي عِلَّةٍ اعْتَلَّهَا جَعَلَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطّاً لِسَيِّئَاتِكَ فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحُتُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ.
قال الرضي: و أقول صدق (عليه السلام) إن المرض لا أجر فيه لأنه ليس من قبيل ما يستحق عليه العوض لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام و الأمراض و ما يجري مجرى ذلك و الأجر و الثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد فبينهما فرق قد بينه (عليه السلام) كما يقتضيه علمه الثاقب و رأيه الصائب.

٤٣- وَقَالَ (عليه السلام): فِي ذِكْرِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ يَرْحَمُ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً وَهَاجَرَ طَائِعاً وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ وَعَاشَ مُجَاهِداً.

٤٤- وَقَالَ (عليه السلام): طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ.

٤٥- وَقَالَ (عليه السلام): لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي وَذَلِكَ

أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ قَالَ يَا عَلِيُّ لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ.

٤٦- وَقَالَ (عليه السلام): سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ.

٤٧- وَقَالَ (عليه السلام): قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.

٤٨- وَقَالَ (عليه السلام): الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ.

٤٩- وَقَالَ (عليه السلام): احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ.

٥٠- وَقَالَ (عليه السلام): قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.